لغةُ الجسمِ وأثرها في الإبانةِ: نماذج مِن التّراثِ اللّغوي والبلاغي

*مهدي أسعد عرار**

ملخص

يرمي الباحثُ في هذه الورقةِ إلى الوقوفِ عند "لغةِ الجسمِ" المؤْذنةِ بالإبانةِ وتعيين مقاصدِ الكلمِ ورسومِ التّعبير، بلْ قد تكون دالّةً في أحايين على معنى مغايرٍ للألفاظِ المستعملةِ في حدثٍ لغوي ما، وقد تردد الباحثُ في هذه الورقةِ بين أربعةِ أقطابٍ مؤسسةٍ قام عليها البحثُ، أما أولُها فمهاد وتأسيس، وفيه حديثٌ عن مقدماتٍ كلّيةٍ، كالحركةِ الجسميةِ بين الفطري والمكتسبِ، والتّواصل والتّفاصل، والعام والخاص، وثانيها تمثّلٌ لهذه الظّاهرةِ في التّراثِ البلاغي عامةً، والجاحظِ خاصةً، وثالثُها استشرافُها في التّراثِ اللغوي بالفيءِ إلى ابن جنّي، ورابعها التّعريج على جدلٍ بين روايةِ الحركةِ وحركةِ الروايةِ، فقد يحدثُ أحيانًا أن يسرد الراوي حديثًا، أو حدثًا كلامياً، ولكنّه قد يقفُ عند هيئاتٍ مخصوصةٍ من الحركاتِ الجسميةِ التي رآها في الحدثِ الكلامي الحي، فيستعين على تلكم الهيئاتِ المخصوصةِ بروايةِ الحركةِ بخاص لفظِه؛ وهكذا ينزاح في حركةِ الروايةِ إلى روايةِ الحركةِ، تحقيقًا للنّص، ورسما للّغةِ الجسميةِ الحركيةِ التي كان قد رآها.

مقدمةٌ أوليةٌ

صباح يومٍ كنتُ قد ولّيتُ وجهي شطر جامعتي قاصدا عملي ثَم، وقد غدا لزاما علي أن أجوز نقطةً عسكريةً تضرب بين المدينتَين بباب، فالتقيتُ يومها رجلاً أبكم أصم قد عقِد لسانُه، فصار يرسم بجوارحِه الجسميةِ مراده، لينْبئ بها عن معانٍ داخليةٍ يقولُها بها، فاقتنصتُ ساعتَها، وفاء لِما صدر مِنه مِن حركاتٍ وإشاراتٍ وإيماءاتٍ وشمائلَ في سياقِها ذاك، أنّه يرنو إلى أن أعينَه على حملٍ كان قد أثقله، فلما انتهينا إلى الصهيوني في برجِه المحصن أومأ إليه الأصم بحركاتٍ أخر مفارقةٍ للتي كانتْ مِنه معي أن يجوز الحاجز العسكري، فرد عليه الجندي بحركةٍ أخرى مستفهما عن وجهتِه، وهكذا مضيا في رسمِ دلالاتٍ مخصوصةٍ دون أن ينبسا ببنتِ شفةٍ، وفاء لاسترفادِ حركاتِ الجوارحِ التي قامتْ مقام كلماتٍ بلْ جملٍ، ثم دخلتُ الحاجز، فأبى الجندي إدخالي، فأومأ إليه الأصم ثالثةً بحركاتٍ جسميةٍ بأنّه رفيقُ دربٍ لي كي أعينَه على حملِه، وأنّه لا قِبلَ له بهذا السفر إلاّ بالصحبةِ تلك، فساءلني الجندي بلسانٍ أعجمي يجمجم ولا يكاد يبين، فانقطع التّواصلُ بيني وبينَه حتّى أفضى ذاك بي إلى أن أتأسى بالأصم في تواصلِه مع الجندي، فاسترفدتُ مِن لغةِ الجسمِ الدلالةَ والإبانةَ في ذلكم السياقِ لأقولَ له بجوارحي إنّه معي، وإن وجهتَنا واحدةٌ، وإنّه كالكل على مولاه، ولستُ أنسى استجابةَ الصهيوني الحركيةَ التي تخلّقتْ رداً مِنه على حركتي، فقد أوحى بقوابل بندقيتِه، وهزةِ رأسِه إلى اليمين أن امضِ.

وهكذا نقفُ في هذه الحادثةِ أمام ثالوثٍ في حدثٍ ما هو بكلامي، وإنّما هو تعبيري: الأصم والصهيوني والباحثِ، أما أولُنا فقد أخذ ا سمعه فحرم مِن اكتسابِ اللّغةِ، فغدا لسانُه معقودا، وأما الثّاني فقد كان ابن لسانٍ أعجمي لا قِبلَ للثّالثِ باستنطاقِه، واستشرافِ مقاصدِ رسومِه وتعابيره، وأما الثّالث فقد كان يفيء إلى مرجعٍ مفارقٍ في تشكيله الصوتي والصرفي والتّركيبي والمعجمي للثّاني، فكان حظهما التّفاصلَ، والمفارقةُ المعجِبةُ اللّطيفةُ أن الأصم الفاقد للنّظامِ اللّغوي قد تواصل مع مالكِ النّظامِ، أعني معه، ومعي مِن قبلُ، فاستذكرتُ ساعتَها إشارةَ مريم –عليها وعلى ولدِها السلام- لما نذرتْ للرحمن صوما عن الكلامِ فلم تكلّم يومها إنسياً باللّفظِ، بل بلغةِ الجسم والإشارةِ، "فقالوا كيف نكلّم من كان في المهدِ صبياً"(1).

واستذكرتُ كذلك قولَ الشّاعر:

وإذا التقينا والعيون رواهـ ـقٌ صمت اللّسان وطرفُها يتكـ ـلّم
تشكو فأفهم ما تقولُ بطرفِها ويرد طرفي مثلَ ذاك فتفهم(2).

واستذكرت أيضا قولَ سيغموند فرويد: "ذاك الذي تصمتُ شفتاه يثرثر بطرفِ أصابعِه"(3).

عودا على بدءٍ، وأرجو أن يكون العود أحمد، فلنا أن نشبه المعنى بأن له روافد تغذّيه، وأن هذه الروافد كالمجاري، فمِنها المجرى الصائتُ، وهو الكلام الذي تتشكّلُ به الرسالةُ، فينعقد به التّواصلُ، ومِنها المجرى الصامتُ الذي عليه عقد

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بيرزيت، فلسطين. تاريخ استلام البحث 2004/9/5، وتاريخ قبوله 2005/3/7.

البابِ والموضوعِ، وقد تُنقَلُ الرسالةُ بالمجرى الصائتِ، وقد يكون ذلك بتضافرِ المجريين، وقد يغذّى المعنى برافدِ المجرى الصامتِ كما كان معي في المتقدمِ بيانُه، وقد ألفى باحثٌ أن تأثير الرسالةِ الكلّي ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، أولُها 7% مِن المجرى الصائتِ، و38% مما يعتري المجرى الصائتَ كالتّنغيمِ، والنّغمةِ، ودرجةِ الصوتِ، و55% مِن المجرى الصامتِ[4]. وقد توصل آخر إلى مستصفى مِن الرأي يقرب مِن هذا المتقدمِ، فقد ألمح إلى أن الجزء الكلامي مِن المحادثةِ الوجاهيةِ تأتلفُ في جزئِها الأصغرِ مِن 35% مِن الرافدِ الصائتِ لتأديةِ المعنى، وفي جزئِها الأكبرِ مِن 65% مِن الرافدِ الصامتِ القائمِ على اطّراحِ الكلامِ، واسترفادِ ما يقوم مقامه مِن حركاتِ الجوارحِ والشّمائلِ والإشاراتِ[5].

وقد كان مِن محصول هذه الحادثةِ أن أعاود النّظر في مقولاتِ علمِ الدلالةِ والسيمياءِ عامةً، ولغةِ الجسمِ خاصةً، فألفيتُ باب القول على هذا المطلبِ عريضا على الصعيدِ الغربي، فإذا بهم يجترحون مصطلحا قائما برأسِه، علما على ما يشتملُ عليه، جانحين إلى وسمِه بـ "علم الحركية" الذي هو هادٍ للجميعِ، وأداةٌ لها خطرها للمتخصصين في التّواصلِ والاتّصالاتِ مِن مثل مقدمي النّدواتِ، والسياسيين، والمثقّفين، والأساتذةِ، ومديري العلاقاتِ العامةِ، والصحفيين[6]، والمقاصد المتعينةُ مِن "علمِ الحركيةِ" تسير في ثلاثِ شُعبٍ متلاحمةٍ، وهي "معرفةُ المرءِ نفسه بصورةٍ أفضلَ، ومعرفتُه جعلَ نفسِه مفهوما بصورةٍ أفضلَ، وفهم الآخرين فهما أفضلَ"[7].

مهاد وتأسيس

لعلّه يحسن، بعد هذا المتقدمِ، أن نتبصر في المقولاتِ التي يتعاطاها أهلُ هذا الدرسِ لتكون كالمِهادِ لِما يعقبه

الحركةُ الجسميةُ بين الفطري والمكتَسب

وقد خاض أهلُ هذا الدرسِ في دراساتٍ عمليةٍ تتلمس منشأَ هذه الحركاتِ، أو لنقلْ: في اللّغةِ الجسميةِ عامةً، أهي الفطرةُ أم الاكتساب؟ ومستصفى القول في تلكم المساءلاتِ أن بعض الحركاتِ باعثُها فطرةُ ا_ التي فطر الخلقَ عليها، ولعلّ أجلى مثالٍ على ذلك الأطفالُ والصم والبكم والعمي الذين تصدر عنهم إيماءاتٌ وإشاراتٌ جسديةٌ دون أن يكونوا قد رأَوها فحاكَوها، كالابتسامةِ في معنى الفرحِ، والكشرةِ في معنى الحزن، وتقطيبِ الوجهِ في معنى الغضبِ، وهزةِ الرأسِ في معنى القَبول، وأن بعض تلكم الحركاتِ الجسميةِ الدالّةِ على معانٍ قد تتخلّقُ عند المرءِ بالاكتسابِ[8]، وأن هذه الحركاتِ المكتسبةَ تُقسم إلى قسمين أولُهما أن تكون حركاتٍ مكتسبةً بالمحاكاةِ والتّقليدِ، وثانيهما أن تكون مكتسبةً بالدربةِ والمِراس، كالتّحايا العسكريةِ، والغَمزِ بطرفِ العين، وإشاراتِ الصم والبكم المتعلمةِ[9].

أما الضرب الأولُ مِن الحركاتِ – أعني الحركاتِ الفطريةَ– فقد ترددتْ بين ستّةِ معانٍ سميت بالانفعالاتِ الستّةِ العالميةِ، وأولُها البهجةُ، وثانيها الحزن، وثالثُها الاشمئزاز، ورابعها الخوفُ، وخامسها الغضب، وسادسها الدهشةُ. والحق أن بِمكْنَةِ المرءِ - بقطعِ النّظرِ عن لونِه وجنسِه ومشربِه ولسانِه- أن يقتنص هذه المعاني بالفَيءِ إلى الإيماءاتِ والحركاتِ الفِطريةِ التي تظهر في سياقِها، وقد نهد عالم نفسٍ أمريكي إلى الخوضِ في تأصيل هذه الانفعالاتِ الستةِ طلبا للتّحقّقِ مِن عموميتها، وتعارفِ أهل الخليقةِ البشريةِ عليها، فوزع صورا كان قد التقطها معبرةً عن تلكم المعاني المتقدمِ بيانُها على جماعاتٍ مِن أجناسٍ وبلدانٍ وأعمارٍ متباينةٍ، وكانتْ صفوةُ القول التي أفضتْ إليها نتائج مباحثاتِه دالّةً على أن العينةَ تتواضع على معانيها تواضعا فطرياً، فثَم:

93% منهم أجمعوا أمرهم على معنى البهجةِ.

و88% أجمعوا على معنى الدهشةِ.

و83% أجمعوا على معنى الاشمئزاز.

و81% أجمعوا على معنى الحزن.

و76% أجمعوا على الخوفِ.

و73% أجمعوا على معنى الغضبِ[10].

الحركةُ الجسميةُ بين الدال والمدلول

لقد ارتضى "دي سوسير" أن يكون للكلمةِ جانبان: واحد مادي، وآخر معنوي، أما المادي فهو الدال، وهو الصورةُ الصوتيةُ، وأما المعنوي فهو المدلولُ، وهو الصورةُ الذّهنيةُ التي تنقدح في النّفسِ عند ورودِ الدال عليها، والحقّ أن الحركةَ الجسميةَ كذاك أمرها؛ إذْ إن لها دالا ومدلولاً. أما الدال فهو الصورةُ التّشكيليةُ التي تتجلّى عليها الحركةُ؛ حركةُ الكف، أو اليدِ، أو العين، أو الحاجبِ، أو الوقفة... وأما المدلولُ فهو الصورةُ الذّهنيةُ المعنويةُ التي تسترفد دلالتَها مِن الدال الحركي، فكلتاهما –أعني الكلمةَ في اللّغةِ الصائتةِ، والحركةَ في اللّغةِ الصامتةِ (الجسمية)- تأتلفُ مِن دال ومدلولٍ، والملْمح الفراقُ بينهما غير متعينٍ في المدلول، بل في ماهيةِ الدال؛ إذْ إنّه في الصائتةِ صوتي ذو طبيعةٍ رمزيةٍ، وفي الصامتةِ حركي ذو طبيعةٍ رمزيةٍ أيضا.

وكما كان يحدثُ أن يقع تحتَ الكلمةِ معنيان أو أزيد، لتغدو مما ينتسب إلى المشتركِ اللّفظي كالعين، فإن الحركةَ

الجسميةَ قد يقع تحتَها معنيان أو أزيد، فتنتسب إلى ظاهرةِ "المشتركِ الحركي"، فهزةُ الرأسِ يقع تحتَها معانٍ متعددةٌ، ومِن ذلك "الطّرب"، أو "القَبول"، أو "الرفض"، والدال "فرك الكفّين" قد يومِئُ بمدلولَين: أولُهما أن صاحب هذه الحركةِ قد اعتراه برد فأتاها، وثانيهما أنّه فرح بهيج، وتحريك أصابع اليدِ إلى الأعلى والأسفل حركةً موضعيةً مع بقاءِ الإبهامِ مرفوعا ذو دِلالاتٍ متعددةٍ، ومِن ذلك أنّها تقوم مقام النّداءِ، أو تعالَ، وقد تعني: ليس لدي، أو غير موجود، أو تعني الرفض كقولنا "لا"، كلّ هذا المحتمِل لا قِبلَ لنا باستشرافِ مدلوله على وجهِ الإحكامِ والتّعيين إلاّ بالسياق الذي يرد فيه هذا الدال الحركي؛ السياق الثّقافي والحالي والقرائن الاجتماعيةِ التي تحتف بها.

وحك الرأسِ حركةٌ جسديةٌ مشتركةٌ تستدعي معاني مخصوصةً في الذّهن، ومِن ذلك أنّها قد تدلّ على أن آتيها فيه أذى مِن رأسِه، أو فيه قشرةٌ، أو قملٌ، وقد تدلّ على قلق المرءِ واضطرابِه، فيفضي هذا الاضطراب النّفسي الجواني إلى إيماءٍ جسمي براني، وقد تدلّ – مِن وجهةٍ دلاليةٍ أخرى- على نفادِ الصبر، أو النّسيان، أو الكذب ... إخالُ أنّه يصح في الفهم ويستقيم أن يقالَ إن المرء إذا ما أراد أن يعين معنى حركةٍ ما فإن عليه أن ينظر إليها في سياقِها متضافرةً مع حركاتٍ أخر، ولعلّنا في هذا المقامِ نتحدثُ عن سياق الحال الذي يفعلُ في تشكيل المعنى وتعيينه[11].

وكما أن المعنى الواحد قد يعتوره كلمتان، بلْ كلماتٌ، لينشأَ مِن بعدِ ذلك التّرادفُ، فإن طائفةً من الحركاتِ قد تلتقي على معنى واحدٍ، لينشأَ بعد هذا "التّرادفُ الحركي"، ومِن ذلك معنى الرفض، فله دالاّن أو أزيد، كالرفض بهزةٍ في الرأسِ، والرفض بالإشارةِ باليدِ، والرفض برفعِ الحاجبين إلى الأعلى مع توسعِ العينَين، فحركةُ كل جارحةٍ كفيلٌ أمين بتأديةِ المعنى الذي قد تأتي به اللّغةُ الصامتةُ. لعلّه يظهر بجلاءٍ مما تقدم أن بعض النّظرياتِ الدلاليةِ والمعجميةِ يمكن جداً أن تصدقَ على لغةِ الجسم، كالتّرادفِ والمشتركِ والسياق...

الحركةُ الجسميةُ بين التّواصل والتّفاصل

وقد باتَ مقررا، مما تقدم قبلاً، وسيأتي بعدا، أن للجسمِ لغةً برانيةً تشي بأعراضٍ نفسيةٍ جوانيةٍ، وتفيد معاني، وتؤدي أغراضا، وكلّ هذا ينتسب إلى بابِ القول على التّواصل والإبانةِ، ولكن، قد يرد على المرءِ أحداثٌ كلاميةٌ يعتريها لُبس وإشكالٌ، وقد يقع المرء في مِضمار الإلباس والتّعميةِ، والحقّ أن هذا اللبس أو الإلباس قد يقعان في اللّغتَين الصائتةِ والصامتةِ. أما في الصائتةِ فمثُلُ ذلك متكاثرةٌ، والأثر بها مستفيض، وقد عرجتُ عليها في مستوياتٍ متباينةٍ؛ كاللبسِ الآتي مِن التّصويتِ، والتّصريفِ، والتّركيبِ، والمعجمِ، والأسلوبِ، والسياق[12]. أما في الصامتةِ فقد يحاولُ المرء أن يستعين بلغةِ الجسمِ ليقولَ بها خلافَ ما يضمر، وما يخفي صدره أكبر، وأنّى له ذلك إلاّ في القليل النّادر، "والشّيء المثير أن الحيوان البشري قليلاً ما يدرك أن حركاتِه وإشاراتِه وأوضاعه يمكن أن تومِئَ بشيءٍ ما، ولكن صوتَه يحكي عن شيءٍ مغايرٍ تمام المغايرةِ"[13]، فالعقلُ الإنساني يمتلك مِفتاح أمانٍ وتحكّمٍ قد يسجلُ انزياحا عندما يستقبلُ وسائلَ صامتةً غير متوافقةٍ أو منسجمةٍ، وقد ضرب Pease مثالاً على ذلك عندما تعمي ملكاتُ الجمال معاني مخصوصةً، فتستعملُ كل واحدةٍ حركاتٍ جسديةً تكتسب بالتّعلّمِ والدربةِ بغيةَ تقديم انطباعٍ ما؛ كالدفءِ، أو الصدق، أو الجاذبيةِ، أو ... وقد يكن قادراتٍ على بعضِ هذا، كتزييفِ حركاتِ الجسمِ، ولكن الجسم سيصدِر إشاراتٍ عفويةً تستقلّ عن الأفعال المقصودةِ[14]، والتّمثيلُ على هذا كثير في الأحداثِ الكلاميةِ الحيةِ، فكثيرا ما نسمع أو نقولُ:

- لسانُه يقولُ لي أهلاً وسهلاً، وتعابير وجهه بخلافِ ذلك.
- لم أر في عينيهِ الصدقَ، مع أنّه غلّظ أيمانَه.
- حركاتُ هذا الرجل تبعثُ في نفسي الريبةَ.

الحركةُ الجسميةُ بين العام والخاص

ليتخيل المرء نفسه على صعيدٍ غربي ناءٍ، فقد يقع في نفسِه معانٍ ودلالاتٌ باعثُها الحركاتُ والإشاراتُ التي يراها ممن تصدر مِنهم، والذي يظهر أن تلكم المعاني الآتيةَ مِن "لغةِ الجسم" مما ينتسب إلى معجمِه المعنوي، كالمعاني الانفعاليةِ الستّةِ التي أتينا عليها آنفًا، ولكنّه قد يقفُ وجاه حركاتٍ أُخر مما هو خارج عن مضمارِ معجمِ ثقافتِه، ومِن هنا لا بد في درسِ "لغة الجسم" مِن التّلميح إلى أن ثَم لغةً عالميةً، وثانيةً خاصةً تختلفُ باختلافِ الثّقافاتِ، ومِن ذلك حركةٌ جسميةٌ حمالةٌ لثلاثِ دِلالاتٍ تتباين بتباين الثّقافةِ والديار، وعمادها عقد دائرةٍ مغلقةٍ بالإبهامِ والسبابةِ، ففي أمريكا تدلّ على معنى الموافقةِ، أو على أن الأمر أو الشّيء قد بات معداً مستحكِما، أما على صعيدٍ آخر، كفرنسا، فهي مبينةٌ عن معنى "لا شيء"، أو "هذا صفر"، أو "هذا باطلٌ"، وعلى صعيدٍ ثالثٍ كاليابان، تُلْمِح هذه الحركةُ الجسميةُ إلى النّقودِ[15]، وهزةُ الرأسِ مِن جانبٍ إلى آخر معناها في بلغاريا أن صاحبها يعلن الموافقةَ الجازمةَ والحاسمةَ[16]، وهي عندنا ذاتُ وشايةٍ على معنى الرفضِ والإنكار.

بين لغةِ الجسمِ واللّغةِ الإشاريةِ

ولعلّه – مِن وجهةٍ أخرى– يحسن إقامةُ بونٍ بين لغةِ الجسمِ واللّغةِ الإشاريةِ؛ إذْ إن الأخيرةَ غدتْ مصطلحًا ذا لُحمةٍ وثقى بلغةِ الصم والبكمِ، والحقّ أنّها ذاتُ نسبٍ حميمٍ بهذه المباحثةِ، فهي قائمةٌ على حركةِ الجسمِ؛ كتشكيل الأيدي الحاملةِ تسع عشرةَ قيمةً دِلاليةً، ومكان النّطق الحامل اثنتي عشرةَ قيمةً دلاليةً، كالخد، والحاجبِ، واليدِ العليا،...، والحركةِ الحاملةِ لأربعةٍ وعشرين مغزى[17]، والحقّ أن اللّغةَ الإشاريةَ لغةٌ قائمةٌ برأسِها باعتبارها مدخلاً رئيسا لتعليمِ الصم تتحكّم بها أسس، وتنظّمها قوانين، وقد اعترفت الدول التي تسمى متطورةً بها بالنّظرِ إليها على أنّها لغةُ أقلّياتٍ[18]، فقد صارتْ فيها كلّ حركةٍ مخصوصةٍ تُتَعلم لا تُكتَسب حمالةً لِدلالةٍ لا يهتدي إلى معناها إلاّ أهلُ التّواضعِ، وأصبح فيها – أعني في اللّغةِ الإشاريةِ– دال حركي، ومدلولٌ معنوي، ويجمع هذا كله معجم خاص[19].

والظّاهر أن هذه اللّغةَ تقوم على ملحظِ الاعتياضِ، أعني فلسفةَ العين بدلَ الأذن[20]، وقد أشير إلى أنّها قائمةٌ على التّدريبِ البصري على حركاتِ الشفاه في أثناء التّخاطبِ، ولها إشكالياتٌ، وقد أشارت الدراسات إلى أن ثلثَ الدلالةِ قد يستقى مِن قراءةِ الشّفاهِ للشّخصِ المتدربِ الذّكي، أما الباقي فهو محض استنتاجٍ[21]، والحقّ أن ثَم افتراقًا بين اللّغةِ الإشاريةِ واللّغةِ المنطوقةِ في جهتَين أولاهما الكيفيةُ، وثانيتُهما البناء، أما في الكيفيةِ فلا يظهر تعالقٌ جوهري بين الدال والمدلول؛ بين الأصواتِ والشّيءِ الذي تشير إليه، أما اللّغةُ الإشارية ففيها رمزيةُ مطابقَةٍ، ومثالُ ذلك كلمةُ "قطار" المؤتلفةُ مِن أربعةِ حروفٍ مرسومةٍ، وهو بخلافِ ذلك في الحقيقةِ الخارجيةِ لطولِه، أما في اللغةِ الإشاريةِ فلا بد مِن تضخيمِ حركةِ اليدين وما شاكلها وفاء بمظهره الخارجي الضخمِ.

أما في البناءِ فاللّغةُ المنطوقةُ تقوم في هيئتِها على رصفِ بناءٍ متعاقبٍ، فثَم فونيماتٌ تتجمع في مورفيماتٍ، والمورفيماتُ يعقبها تراكيب، والتّراكيب يعقبها جملٌ... وهكذا دواليك، أما رصفُ لغةِ الإشارةِ فهو البناء المتزامن القائم على أساسِ التّنظيمِ في حيزٍ مكاني، أي ان معنى المنطوقاتِ لا يعين بالاعتمادِ على ترتيبِ الإشارةِ، بل بتزامنِها[22].

لغةُ الجسمِ في التّراثِ البلاغي

الجاحظُ نموذجا

وفي "البيان والتّبيين" تلقى القارئَ مباحثاتٌ دالّةٌ على استشعار الجاحظِ أن للجسدِ لغةً صامتةً تنضافُ إلى اللّغةِ الصائتةِ، والحقّ أن تلكم المباحثاتِ تنقسم إلى قسمين؛ أما أولُهما فهو وقوفُ الجاحظِ على لمحاتٍ مِن لغةِ الجسم وقفةَ المدقق لذاتِها، وأما ثانيهما فهو ورود هذه اللّمحاتِ في ثِنْي عرضِه لرواياتٍ، أو أحداثٍ، أو أشعارٍ لم يقصد فيها إلى لغةِ الجسم قصد الدارس والمحال كما هي الحالُ في القسمِ الأول.

لغةُ الجسمِ والبيان

يعقد الجاحظُ بابا في كتابِه موسوما بـ "البيان"، مستشرفًا وجوهه، معرجا على دلالتِه وفروعِه، والنّاظر فيه يجد مفهوم البيان عند الجاحظِ فضفاضا يستغرقُ اللّفظي وغير اللّفظي؛ ذلك أن كل ما توسل به المرء للإبانةِ والتّواصل يدور في فَلَكِ "البيان" عنده، وعلى هذا، فاللّفظُ، إن كان مؤديا إلى معنى، ضرب مِن البيان، ولغةُ الجسم ضرب آخر مِنه، والإشارةُ بالثّوبِ كذلك أمرها، ومستصفى القول عنده أنّه اسم جامع لكل شيءٍ كشف لك قناع المعنى، وهتَك الحجاب دون الضمير، "حتّى يفضي السامع إلى حقيقتِه، ويهجم على محصولِه كائنًا ما كان ذلك البيان، ومِن أي جنسٍ كان الدليل، لأن مدار الأمر والغايةَ التي يجري إليها القائلُ والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيءٍ بلغتَ الإفهامَ، وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[23].

ثم يحصي الجاحظُ دلالاتِ البيان عددا، فيجدها خمسا لا تزيد ولا تنقص، فأولُها اللّفظُ، وثانيها الإشارةُ، وثالثُها العقد، ورابعها الخط، وخامسها الحالُ التي تسمى نِصبةً[24]. أما اللّفظُ فذائع معروفٌ عماده الصوتُ، وكذلك الخطّ عماده القلم، وأما العقد فهو الحساب، وأما النصبةُ فهي الحالُ النّاطقةُ بغير اللّفظِ، والمشيرةُ بغير اليدِ، كالذي يظهر في خلقِ السمواتِ والأرضِ، وفي كل صامتٍ وناطقٍ، وجامدٍ ونامٍ[25]. أما الإشارة عنده فهي باب القول على لغةِ الجسم عندنا، والحقّ أن مفهوم الإشارةِ عنده قد يتعين بغير سبيلٍ، لأن آلاتِ الإشارةِ كثيرةٌ كثيرةٌ، فمِن ذلك الإشارةُ باليدِ والرأسِ والعين والحاجبِ...[26]، والذي يجدر التّنبيه إليه، قبلَ الخوضِ في مطالبِ القول على الإشارةِ عند الجاحظِ، أن يشار إلى أن هذا المفهوم عند ابن رشيقٍ فضفاض يتّسع لِما أورده الجاحظُ ولغيره مِن مباحثَ؛ إذْ إنّه يشتملُ على غرائبِ الشّعر وملَحِه، والتّفخيمِ، والتّلويحِ، والكنايةِ، والتّمثيل، والرمزِ، واللمحةِ، واللّغز، والتّعميةِ، والحركةِ الجسميةِ التي هي موضع هذا البحثِ[27].

جدلٌ بين الإشارةِ والعبارة

لعلّه يحسن إقامةُ بونٍ بين ضربين مِن الإشارةِ في بيان

الجاحظِ، فقد تكون إشارةً عضويةً جسميةً مباشرةً، ومِن ذلك ما تقدم مِن إشارةِ اليدِ والرأسِ و... وقد تكون إشارةً بشيءٍ آخر سيأتي عليها حديثٌ بعدا، كالعصا والثّوبِ والسيفِ[28]، والحقّ أن الإشارةَ والعبارةَ عند الجاحظِ متلازمتان مترافدتان في الإبانةِ والبيان، وقد ألمح الجاحظُ إلى هذا جانحا إلى أن حسن الإشارةِ باليدِ والرأسِ هو "مِن تمامِ حسن البيان باللّسان مع الذي يكون مع الإشارةِ مِن الدل والشّكل والتّقتّل والتّثنّي واستدعاءِ الشّهوةِ وغير ذلك مِن الأمور"[29]. ثم يقرر الجاحظُ تلازم الإشارةِ والعبارةِ واقترانَهما معا، فأنطقُ النّاس لا يستغني بمنطقِه عن الإشارةِ، وقد ضرب مثالَين على ذلك أولُهما: جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان مِن أنطق النّاس، فقد جمع الهدوء والتّمهلَ والجزالةَ والإفهام المغني عن الإعادةِ، ولو كان في الأرضِ ناطقٌ يستغني بمنطقِه عن الإشارةِ لاستغنى جعفر عنها[30]، وثانيهما أبو شَمِر الذي ضرب صفحا عنها حتّى حينٍ، فقد كان إذا تكلّم لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلّب عينَيه، ولم يحرك رأسه، وقد عيب عليه ذلك، "حتّى كأن كلامه إنّما يخرج مِن صدعِ صخرةٍ"[31]، ومذهبه أن المنطقَ ليس مِن حقه أن يستعان عليه بغيره، حتّى كلّمه أحدهم، فاضطره بالحجةِ، فغدا ممن يسترفدها، ويستعين بها على البيان والإفهام، فصار يحرك يديه، ويحل حبوته.[32]

الإشارة والرتبة

وكأنا بالجاحظ في درسه "البيان" عامة، و"الإشارة" خاصة، يومئ الى رتب الإشارة واللفظ، فتارة يكون السبق في الرتبة للفظ، وتارة يقعان موقعاً واحداً من الرتبة؛ إذْ إنّهما "شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه"[33]، وتارةً تكون رتبةُ الإشارةِ سباقةً لرتبةِ اللّفظِ؛ إذْ بِها يتخلّقُ المعنى، وتتعين المقاصد في سياقِها، فمبلّغُ الإشارةُ أبعد مِن مبلّغِ الصوتِ، وهذا "باب تتقدم فيه الإشارةُ الصوتَ"[34].

الإشارةُ وخاص الخاص

وهذا مِن المواضع التي تغدو فيها رتبةُ الإشارةِ أسبقَ مِن رتبةِ اللّفظِ عند الجاحظِ، والحقّ أن ذلك كثير في أيامِنا هذه، فقد تتوارى اللّغةُ الصائتةُ تعميةً وتغطيةً وإسرارا لحاجاتٍ في النّفس شتّى، وتتجلّى اللّغةُ الصامتةُ الدالّةُ، فتكون ثَم إيحاءاتٌ وحركاتٌ مِن الحاجبِ والعين والكف... وكلّ هذا يسبغُ عليه الجاحظُ وسم "خاص الخاص"، وهو، مِن وجهةٍ أخرى، لا ينعقد ولا يقوم إلاّ بها، "ففي الإشارةِ بالطّرفِ والحاجبِ وغير ذلك مِن الجوارح مرفقٌ كبير، ومعونةٌ حاضرةٌ في أمورٍ يسترها بعض النّاس مِن بعضٍ، ويخفونها مِن الجليسِ وغير الجليسِ، ولولا الإشارةُ لم يتفاهمِ النّاس معنى خاص الخاص"[35].

ومِن تجلّياتِ "خاص الخاص" حادثةٌ وقعتْ بين المأمون والجاريةِ في حضرةِ هارون الرشيدِ، فقد كان المأمون يميل إليها وهو إذْ ذاك أمرد، فأراد أن يتواصلَ معها في حضرةِ أبيه، أو لنقلْ بعبارةِ الجاحظِ المتقدمةِ آنفًا: "في أمورٍ يسترها بعض النّاسِ مِن بعضٍ"، فكانتْ سبيله إلى مبتغاه لغةَ الجسم تغطيةً وتعميةً لِما يريد أن يقوله بإشارتِه، فوقع مِنه تقبيلٌ بالطرفِ، ووقع مِنها حياء بالعين شُفِع بإنكارٍ بكسر الحاجبِ، وكانتْ قد "وقفتْ يوما تصب على يدِ الرشيدِ مِن إبريقٍ معها، والمأمون جالس خلفَ الرشيدِ، فأشار المأمون إليها كأنّه يقبلُها، فأنكرتْ ذلك بعينَيها، وأبطأتْ في الصب على مقدار نظرها إلى المأمون، وإشارتِها إليه، فقال الرشيد: "ما هذا"؟، ضعي الإبريقَ مِن يدِكِ، ففعلتْ"[36]، ثم تمضي الحكايةُ بعد أن التفتَ إلى ابنِه المأمون وكأنّه ميتٌ لِما دخله مِن الخجل والجزع، فرحمه وضمه إليه، فاعترف بحبه لها، فقال له: هي لك، ثم قال المأمون في ذلك شعرا معرجا فيه على ما وقع مِن تواصلٍ بلغةِ الجسم في مِضمار "خاص الخاص":

ظبي كتبتُ بطَرفي مِـن الضـمير إليه
قبلتُه مِـن بعيـدٍ فاعـتـلّ مِن شفتَيه
ورد أحـبـثَ رد بالكسـرِ مِن حاجبيه
فما برحتُ مكاني حتـّى قدرتُ عليه[37].

لِنرجِع النّظر في بعضِ أمثلةِ الجاحظِ على "خاص الخاص":

وللقلبِ على القلـبِ دليلٌ حين يلقـاه
وفي العين غنى للمر ءِ أن تنطقَ أفـواه

وقال آخر:

العين تُبدي الذي في نفسِ صاحبِها
مِـن المـحبـةِ أو ود إذا كـانـا
والعين تنطقُ والأفـواه صامتـةٌ
حتّى تَرى مِن ضمير القلبِ تِبيانا

وقال آخر:

تَرى عينُها عيني فتعرفُ وحيها
وتعرفُ عيني ما بِهِ الوحي يرجِع

والظّاهر أن جل ما ذكره الجاحظُ في معرض حديثه عن الإشارةِ وخاص الخاص مضماره العين الجارحةُ، ولعلّ في ذلك دلالةً على فضل العين في التّواصل والإبانةِ عن حواشي النّفوس[38]، وقد فسر بعضهم هذا بأن العينَين قارتان في مركزٍ محوري مِن الجسمِ، ثم إن إنسان العين ينقبض وينبسطُ وفقًا لتباين موقفِ المرءِ وحالِه، فإذا ما غضب فإن إنسان

عينه سينقبض، والأمر بالضد إذا تباينتِ الحالُ، فقد يتّسع ليصلَ إلى أربعةِ أضعافِ حجمِه الأصلي، وقد تبين مِن اختباراتٍ عمليةٍ ميدانُها لاعبو الورق المحترفون أنّهم لم يكن لهم حظ بالظّفر إلاّ قليلاً على خصومِهم الذين كانوا يسترون عيونَهم بالنّظّاراتِ السودِ؛ ذلك أنّها مِن الحواجبِ لإشاراتِ العين عامةً، والبؤبؤ خاصةً، فلم يكن بمقدورهم أن يلتمسوا مِن عيون خصومِهم إلماحةً، أو إشارةً، أو وشايةً، تُعينُهم على تقدير مسار اللّعبِ[39].

متفرقاتٌ مجتمعاتٌ عند الجاحظِ

إفشاء السلامِ بالعين

وقد يحدثُ أحيانًا، وهذا ملحظٌ نعاينُه كثيرا، أن يكون إفشاء السلامِ بلغةِ الجسم كما هي الحالُ في لغةِ اللّسان، فمِن ذلك أداء السلامِ باليدِ الملوحةِ، أو بالعين المسلمةِ المنتسِبةِ، أو بهزةِ الرأسِ إلى الأسفل مع التّطامن قليلاً، ولعلّ لهذا المخوض فيه لُحمةً بخاص الخاص عند الجاحظِ، فقد ساق مثالاً مبينًا عن ذلك بالعين المسلمةِ في مقامِ لقاءِ العاشقَين في حضرةِ الأهل، وليس يخفى أن مقاماتِ الحرجِ الاجتماعي تُؤْذن بأن تكون رتبةُ لغةِ الجسم "الإشارة" متقدمةً على رتبةِ اللّفظِ وجوبا في مثل تلكم المقاماتِ، ويمثّلُ الجاحظُ على ذلك بقول الشّاعر:

أشارتْ بطرفِ العين خيفةَ أهلِها
إشارةَ مذعـورٍ ولم تتكـلّم
فأيقنتُ أن الطرفَ قد قالَ مرحبا
وأهلاً وسهلاً بالحبيبِ المتيمِ[40].

بسطُ الوجهِ رسالةُ بِشرٍ

ولهذه الإيماءةِ يد في تواصل الضيفِ مع ضيفِه، فإذا ما تبدتْ علائم التّلقّي والتّأنيسِ على وجهِ من يتلقّفُ ضيفَه فإن ذلك سيكون بمنزلةِ ما ينضافُ إلى ألفاظِ التّرحيبِ والإحسان، وقد يكون الأمر بالضد، فيعرفُ كل منّا أن ذاك راغب عن استضافتِه وإن أظهر بلسانِه ما هو متجافٍ عما ورد علينا مِن وجهه وحركاتِ جسدِه، وقد التفت الجاحظُ إلى هذا، "لأن العرب تجعلُ الحديثَ والبسطَ والتّأنيس والتّلقّي بالبِشر مِن حقوق القِرى ومِن تمامِ الإكرامِ"[41]، وقديما قالتِ العرب:

أضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزال رحلِه
ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخِصب للأضيافِ أن يكثر القِرى
ولكنّما وجه الكريمِ خصيب[42].

اليد وإشارةُ التّعيين

ولليدِ فضلٌ في تعيين المقصودِ تعيينًا يغني عن ألفاظٍ متكاثرةٍ، كالمكان، أو الشّيءِ، أو الجهةِ، ومِن ذلك ما ورد في خُطبةٍ لمصعب بن الزبير لما قدم العراقَ، فقد روي أنّه استفتح خُطبتَه بثلاثِ آياتٍ مِن التّنزيل العزيز، قاصدا مِن كل آيةٍ أن يصفَ بها بلدا وأهلَه، متجافيا عن ذكر البلدِ صراحةً، معولاً على إشارةِ اليدِ في تعيين المكان الذي ينبني عليه تعيين المعنى، قائلاً: "بسمِ ا ـ الرحمن الرحيمِ "طسم، تلك آياتُ الكتابِ المبين،...، إن فرعون علا في الأرضِ وجعل أهلَها شِيعا يستضعفُ طائفةً مِنهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنّه كان مِن المفسِدين"، وأشار بيدِه نحو الشّامِ، "ونريد أن نمن على الذين استُضعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين"، وأشار بيدِه نحو الحجاز، "ونمكّن لهم في الأرضِ ونري فرعون وهامان وجنودهما مِنهم ما كانوا يحذرون"، وأشار بيدِه إلى العراق[43].

جِلسةُ المزدري المتراخي:

والجِلسةُ لها هيئاتٌ ودِلالاتٌ، فقد تَرد مِنها دلالةٌ على أنّها جلسةُ المتراخي، أو أنّها جلسةُ المريضِ المثقَل، وقد تكون جلسةَ القلق المستوفِز، أو المزدري من يقفُ وجاهه، وقد ورد في "البيان" وصفُ جلسةٍ لمعاوية ذاتِ دلالةِ ازدراءٍ لِمن يحاوره، والظّاهر أنّها مؤتلفةٌ مِن غير جارحةٍ وشكلٍ، ففيها تتضافر العين والرجلُ وهيئةُ الاتّكاءِ لتأديةِ معنى الازدراءِ والتّنقّصِ، وقد رواها الجاحظُ قائلاً: "قال عمرو بن العاص: ما رأيت معاويةَ قط متّكئاً على يساره، واضعا إحدى رجلَيه على الأخرى، كاسرا إحدى عينَيه، يقولُ للذي يكلّمه: يا هناه، إلاّ رحمتُ الذي يكلّمه"[44].

جلسةُ الأنْوكِ الأحمق

وقد رسم الجاحظ بكلماتِه حركةً جسديةً تتساوقُ مع وسمِ صاحبِها بالأنْوكِ الخائفِ، وعمادها الجلوس في ناحيةٍ مِن البيتِ مع الانقباضِ والاشتمال، وفيها يقولُ: "...لما أدخِل على امرأتِه فرأتْ مِنه ما رأتْ مِن الجفاءِ والجهل، وجلس في ناحيةٍ منقبضا مشتمِلاً..."[45].

متمماتٌ مسانِدةٌ

يشيع في درسِ لغةِ الجسم مطالب مِن البحثِ في المتمماتِ المسانِدةِ التي تُسمى "الإكسسوارات"، كالنّظّارةِ والسيجارةِ والسيجار والقلمِ والهاتفِ والعصا[46]، والظّاهر مِن أمرها أنّها تمدنا بمعانٍ مخصوصةٍ؛ ذلك أن بعضها توابع لأعضاءِ

الجسم المومئةِ، وكواشفُ للحالاتِ النّفسيةِ والذّهنيةِ التي تعتري صاحبها، فهيئةُ حمل المرءِ قلمه لها دلالةٌ على أنّه كتب، أو يكتب، أو يفكّر مطرقًا ممسكًا بقلمِه، وقد يصلُ الأمر أحيانًا إلى عتَبةِ قضمِ القلمِ[47]. ولنضرب مثالاً سريعا مِن تراثِنا العربي على دلالةِ بعضِ تلكم المتمماتِ المسانِدةِ، فالحجاج لما خرج يريد العراقَ واليا عليها، بدأ بالمسجدِ فدخله، فقال لما كشف عن وجهه:

أنـا ابن جـلا وطَلاّع الثّنـايا

متى أضعِ العِمامةَ تعرفوني[48].

والذي أراده الحجاج -ومِن قبلِه القائلُ ومن أتى مثلَ هذه الحركةِ- التّهديد والوعيد المتحقّقان مِن حركةٍ جسديةٍ للمتمماتِ المساندةِ، وهي العِمامةُ، ودلالةُ اطراحِها المفضي إلى أن يغدو صاحبها حاسر الرأسِ هي الجِد والتّشاغلُ عنْها بهم.

والظّاهر أن الجاحظَ في "البيان" قد التفتَ إلى هذه المتمماتِ المسانِدةِ، ومِن ذلك تعريجتُه على الإشارةِ التي قد تقع بالثّوبِ وبالسيفِ، فقد يتهدد رافع السيفِ والسوطِ، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا راداً، وقد يكون وعيدا وتحذيرا[49]. وفي حديثِ الجاحظِ عن المخاصرِ والعصي يشير إلى أنّها مِن المتمماتِ التي تؤدي معاني تنضافُ إلى الألفاظِ؛ إذْ إن المخاصر والعصي مِن مرافقِ الخُطبةِ، وقد طعنتِ الشّعوبيةُ على العربِ، بكلامٍ مستكرهٍ يطولُ، أخذَهم المخصرةَ والقناةَ والقضيب والإشارةَ به[50]، وقد رد عليهم الجاحظُ محاميا عن وجهةِ نظره فيها، ووجاهةِ استعانةِ العربِ بها في الإبانةِ والبيان، ومِن ذلك أن العرب كانتْ تشير بالعصا والقَنا لتقوم مقام اليدِ، وقد تكون موحيةً بأشياء أخرى، وقد تجلّى ذلك –كما يرى الجاحظ– في قول الشّاعر:

مجالسهم خفض الحديثِ وقولُهم

إذا ما قضوا في الأمرِ وحي المخاصرِ[51].

ثم يقرر الجاحظُ للخطابةِ أصولاً وآدابا يجب استئنافُها، ومِن ذلك أن الإغراقَ في النّظرِ في عيون النّاسِ عي، ومس اللّحيةِ هلُك[52]، والارتعاشَ والرعدةَ والبهر عيب[53]، والإفراطَ في الحركةِ مذموم، والحقّ أن الجاحظَ في هذه الوصايا يلتفتُ، على نحوٍ معجبٍ، إلى بعضِ ما ورد في هذا الدرسِ عند الغربيين، فهم يقررون أن مكانةَ الشخصِ الاجتماعيةَ تفعلُ في تحديدِ عددِ حركاتِه وإيماءاتِه في أثناءِ كلامِه، فالحركاتُ الجسميةُ والإيماءاتُ عند الرجل ذي المكانةِ المرموقةِ في الغالبِ أقل مِنها عند من هو دونَه في الثّقافةِ والمهارةِ[54]، ولذا فإن عدد الحركاتِ الجسميةِ مقترن بدرجةِ الثّقافةِ والمنزلةِ عند Pease، كما انه عيب اذا أفرط فيه الخطيب، فهو صاحب ثقافة ومنزلة رفيعتين.

"لغة الجسم" في التراث اللغوي

ابن جني نموذجاً

جل ما ورد في "خصائص" ابن جني من مدارسات يدور حول المعنى، وقد التفت في مواضع متفرقة الى أن للمعنى روافد ومحدداتٍ قد تكون لفظيةً خالصةً، وقد تكون غير لفظيةٍ، وليس يخفى على ذي تأملٍ أن الروافد اللّفظيةَ مما ينتسب إلى اللّغةِ الصائتةِ، وأن التي هي غير لفظيةٍ مما ينتسب إلى الصامتةِ، ومِن أمثلةِ الأولى في خصائصِه – وهي كثيرةٌ جداً- باب القول على الإعرابِ، فهو "الإبانةُ عن المعاني بالألفاظِ، ألا ترى أنّك إذا سمعتَ "أكرم سعيد أباه"، و"شكر سعيداً أبوه"، علمتَ برفعِ أحدِهما، ونصبِ الآخر، الفاعلَ مِن المفعول، ولو كان الكلام شرجا واحدا لاستبهم أحدهما مِن صاحبِه"[55]. ومِن أمثلةِ الثّانيةِ –أعني المحدداتِ غير اللّفظيةِ- ما البحثُ معقود عليه، وهو لغةُ الجسم وسهمتُها في الإبانةِ، والمعجب حقّاً أن ابن جنّي لم يكن يفزع إلى السياقِ البنيوي المؤتلفِ مِن المستوى الصوتي، والصرفي، والتّركيبي، والمعجمي فقط، بل استشرف، في مواضع متفرقةٍ، استشرافةَ المدقّق المتبصر، بعدا آخر يفعلُ في تشكيل المعنى وتعيينِه.

ابن جنّي والاعتياض

يعرج ابن جنّي على ظاهرةِ الحذفِ مِن السياقِ البِنيوي قائلاً بصحتها، مقررا أن الحذفَ قد يكون مِن نصيبِ الجملةِ والمفردِ والحرفِ والحركةِ، ولكنّه لا يلقي حكمه هذا على عواهِنه غير مقيدٍ ولا مخصصٍ؛ إذ ليس ثم بد مِن دليلٍ يعتاض به عن المحذوفِ، وإلاّ تخلّق التّفاصلُ، وامحى التّواصلُ، "وكان فيه ضرب مِن تكليفِ علمِ الغيبِ في معرفتِه"[56]. ولمعرفةِ المحذوفِ قرائن ودلائلُ هاديةٌ يلْمِح إليها في بابِه ذاك، ومِنها سياق الحال وما يكتنفُ الحدثَ الكلامي مِن أنظارٍ خارجيةٍ وأحوالٍ، ومِنها كذلك لغةُ الجسم، ومثالُه الذّائع المشهور في ذلك حذفُ الصفةِ وقيام قرائن متضافرةٍ مقامها اعتياضا وإبانةً، كالتّنغيمِ والحركةِ الجسميةِ التي لها دلالةٌ توافقُ دلالةَ الصفةِ المحذوفةِ، ومِن ذلك قولُه: "سألناه فوجدناه إنسانًا"!. والحقّ أن هذه العبارةَ، منسلخةً مِن سياقِها، قد تغدو مِن المشكِل المتأبي عن الدلالةِ، ولكنّها، عند استشرافِ سياقِها الحي بما يشتملُ عليه مِن حركاتِ الجوارحِ وهيئةِ التّنغيمِ ودرجةِ الصوتِ، كل ذلك يفعلُ في تعيين معنى الصفةِ المحذوفةِ، ولذا قد يكون المحذوفُ: إنسانًا كريما مِفضالاً، فالحركةُ الجسميةُ، ولتكن حركةَ الكفّ مع الذّراعِ،

أو تعابير الوجهِ والجبين، ستشي بالمعنى المتعين، وستقوم مقام الصفةِ المحذوفةِ.

وقد يكون المحذوفُ بالضد، فتغدو الحركاتُ الجسميةُ دالّةً على صفةٍ أخرى غير المتقدمةِ، كتقطيبِ الوجهِ والامتعاضِ وإنغاضِ الرأس، "وكذلك إذا ذممتَه ووصفتَه بالضيق، قلتَ: سألناه وكان إنسانًا! وتزوي وجهك وتقطّبه، فيغني ذلك عن قولِك: إنسانًا لئيما أو لَحِزا أو مبخّلاً أو نحو ذلك"[57].

ومِن الأمثلةِ التي تسير بركبِ ما تقدم قولُه: "سير عليه ليلٌ"، وأي ليلٍ هو؟ كلام مجتزأٌ لا تندى مِنه بطائلٍ وهو على هذه الهيئةِ، فقد حذِفَ ركن رئيس مِن أركانِه، ولذلك كان لا بد مِن اعتياض يسد هذا الفراغَ الوظيفي البنيوي، فتتضافر اللّغةُ الصامتةُ مع الصائتةِ للإبانةِ والدلالةِ على المحذوفِ، والحقّ أن التّنغيم وحده في مثل هذا لا يغني عن أداءِ المعنى، ولكنّه يتضافر مع حركاتٍ جسميةٍ متعددةٍ قد تقوم مقام الصفةِ المحذوفةِ، فقد يكون اللّيلُ قصيرا يسيرا فيأتي بحركاتٍ لها دلالةٌ كدلالةِ هذه الصفةِ المحذوفةِ، وقد يكون طويلاً كليل امرئ القيس، فيأتي بأخر حمالاتٍ لدلالةٍ مطابقةٍ لدلالةِ المحذوفِ الكلامي؛ "وذلك أنّك تحس في كلامِ القائل لذلك، مِن التّطويح، والتّطريح، والتّفخيم، ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك"[58].

ابن جنّي وإيماءةُ العين

وقف ابن جنّي عند بابِ القول على الفصل بين "القول والكلامِ" معرجا على تقاليبِ كل واحدٍ، جانحا إلى أنّهما يتعاوران، فيوقع كلّ واحدٍ مِن الكلامِ والقول موقع صاحبِه[59]، وفي ثِنْي عرضِه لهذا الملْحظِ التفتَ إلى أن اللّغةَ الصامتةَ قد تؤدي معاني كما اللّغةِ الصائتةِ مستشهدا بقول الشّاعر:

وقالتْ له العينان: سمعا وطاعةً

وأبدتْ لــه كالدرِ لما يثقبِ

وقد تلمس ابن جنّي دلالةَ "قول العينَين" مشيرا إلى التّجوز الذي يكتنفُ هذا التّركيب؛ إذْ لا قولَ لهما على الحقيقةِ، ولكن لغةَ الجسمِ عامةً، وهيئةَ العينَين في هذا السياق خاصةً، قد أذنتا بتحقّق معنى الطّاعةِ والولاءِ؛ إذْ كان منهما قولٌ يستقى لا بالصوتِ، وإنّما بالصمتِ، فقد قالتْ له العينان سمعا وطاعةً، ويشرح ابن جنّي ما ألفاه مِن معنى متخلّقٍ مِن لغةِ الجسم في هذا السياق بعبارةٍ دالّةٍ معجبةٍ قائلاً: "فإنّه، وإن لم يكن منهما صوتٌ، فإن الحالَ آذنتْ بأن لو كان لهما جارحةُ نطقٍ لقالتا: سمعا وطاعةً، وقد حرر هذا الموضع وأوضحه عنترةُ بقوله:

لَو كان يدري ما المحاورةُ اشْتكى

ولكان، لو علم الكلام، مكلّمي"[60].

الإشمام قراءةُ الشّفتَين

وفي حديثِ ابن جنّي عن اختلاسِ الحركةِ يقفُ عند الإشمامِ الذي هو أن "تضم شفتَيك مِن غير صوتٍ، وهذا يدركُه البصير دون الضرير"[61]، والذي يظهر مِن هذا التّعريفِ أن الإشمام ضرب مِن الحركاتِ الجسميةِ عامةً، وحركةِ الشّفاهِ خاصةً، وأن له دِلالةً نحويةً، وقد جلّى هذه الظّاهرةَ مستندا إلى قول الشّاعر:

متى أنام لا يؤرقني الكرى

ليلاً ولا أسمع أجراس المطِي

ملْمِحا إلى أن القائلَ اراد إشمام القافِ في "يؤرقني"، "ومعلوم أن هذا الإشمام إنّما هو للعين لا للأذن"[62]، ولو كان فيه حركةٌ إعرابيةٌ لاختلّ الوزن ولصار مِن الكامل، والأبياتُ كلها مِن الرجز، وحذفُ الحركةِ، أو اختلاسها، قد لا يستقيم إلاّ بدليلٍ، ولذا وقع التّضافر بين رافدي المعنى: الرافدِ الصامتِ، والرافدِ الصائتِ، فاطرحت الحركةُ الإعرابيةُ، وقامتِ الشّفاه مقامها لتقولَ إن القافَ مرفوعةٌ، "فإذا قنعوا مِن الحركةِ بأن يومِئوا إليها بالآلةِ التي مِن عادتِها أن تُستعملَ في النّطق بها مِن غير أن يخرجوا إلى حس السمعِ شيئًا مِن الحركةِ، مشبعةً ولا مختلَسةً، أعني إعمالَهم الشّفتَين للإشمامِ في المرفوعِ بغير صوتٍ يسمع هناك، ولم يبقَ وراء ذلك شيء يستدل به على عنايتِهم بهذا الأمر"[63].

مقولاتٌ كلّيةٌ

الوجوه المشاهدة

يلح ابن جنّي إلحاحا بينًا أمره على سهمةِ الوجوهِ المشاهدةِ في التّواصل والإبانةِ؛ إذْ إنّها دليلٌ على ما في النّفوس، والحقّ أن كلمةَ "الوجوه" فضفاضةٌ تستغرقُ حركاتٍ جسميةً وجوارح متعددةً، ففي الوجهِ العين، والعين في دلالاتِها الحركيةِ وإيماءاتِها عيون، وهناك الخد، والفم، واللّسان، والحاجب، والشّفاه، وكلّ هذه الجوارح مما يمكن أن يقدم معنى بلْ معاني.

وأولُ مقولاتِ ابن جنّي روايةٌ عن بعضِ مشايخِه مفادها: "وأنا لا أحسن أن أكلّم إنسانًا في الظّلمةِ"، وأحسب أنّه في هذه العبارةِ يصدر عن وعي بفضل لغةِ الجسم في التّواصل، ففي الظّلمةِ وانطفاءِ النّور تنطفئُ هذه اللّغةُ المبينةُ التي ترفد المعنى، وتجلّي المقاصد، ومما هو قريب مِن قولةِ ابن جنّي هذه أن المحدثين الذي يتنالون لغةَ الجسم بالدرسِ والتّحليل

الدلالي يقررون أن مِن أنجعِ السبل في التّواصل واستشفافِ معاني حركاتِ الجسم ظهور جميع الجسم؛ إذْ إن مواراةَ جزءٍ مِنه قد تفضي إلى مواراةِ جزءٍ مِن المعنى، وخير ما يتمثلُ به في هذا المقامِ قاعدةٌ عريضةٌ للشرطي المحقّق مفادها أن على المتهمِ أن يبدي جميع جسدِه "جوارحِه" في التّحقيق، وأن يجعلَ في مكانٍ رحبٍ، وأن يسلطَ عليه ضوء ليكون جسمه في مواجهةٍ ومشاهدةٍ كاملتَين مع المحقّق، فإذا هو زاغَ عن الحقيقةِ في لفظِه، فلعلّ في جوارحِه وهيئاتِ جسدِه وحركاتِه ما يفضح هذا الزيغَ. ولعلّ هذا، مِن وجهةٍ أخرى، يلتقي، في وجهٍ مِنه بلْ في وجوهٍ، مع مقولةِ ابن جنّي: "وأنا لا أحسن أن أكلّم إنسانًا في الظّلمةِ"؛ ذلك أن الحدثَ الكلامي سيفقد كثيرا أو قليلاً من دلالاتِه التي لا تُستقى مِن الرافدِ الصائتِ فقط، "أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدةِ الوجوهِ، وجعلِها دليلاً على ما في النّفوسِ، وعلى ذلك قالوا: رب إشارةٍ أبلغُ مِن عبارةٍ"[64].

بين استماع الأذن ومقابلةِ العين

يأبى ابن جنّي أن يكون استماع الأذن مغنيا عن مقابلةِ العين، مجزئًا عنْه، ولو كان ذلك كذلك لَما تكلّف القائلُ، ولَما كلّف صاحبه الإقبالَ عليه، والإصغاء له[65]، وفي ذلك دلالةٌ على أن اللّغةَ الصائتةَ لا تقدم المعنى الكلّي، بلْ –كما يظهر مِن ثنائيةِ ابن جنّي المعجِبةِ القائمةِ على استماعِ الأذن ومقابلةِ العين– تتضافران معا خدمةً للمعنى والإبانةِ، ويسند مذهبه هذا باسترفادِ دلالةِ "العين" الجارحةِ النّاطقةِ بالصمتِ، فقد يسمع المرء كلام مودةٍ معسولاً، وللعينَين وشايةٌ تدحض القولَ فتجعلُه بالضد، ولذلك كله احتج ابن جنّي بقول الشّاعر مستشرفًا سهمةَ العين في الإبانةِ:

العين تبدي الذي في نفسِ صاحبِها

مِن العداوةِ أو ود إذا كانا[66].

ولعلّ هذا يفضي إلى الوقوفِ عند ثنائيةٍ أخرى في "الخصائص"، وهي "الجدلُ بين الإشارةِ والعبارةِ"، فقد ضرب مثالاً دالا على أن المرء قد يقع في نفسِه معنى باعثُه دلالةُ الإشارةِ لا العبارةِ، "حتّى لو حاف مِنهم حالفٌ على غرضٍ دلّته عليه إشارةٌ لا عبارةٌ، لكان عند نفسِه، وعند جميع من يحضر حالَه، صادقًا فيه، غير متهمِ الرأي والنّحيزةِ والعقل"[67].

بين المخْبِر والمعاين

ولعلّه مِن بدهي القول إن معاينةَ الحدثِ الكلاميّ وأقطابه تؤْذن بتحقّق دلالةِ الحدثِ الكلامي الكلّيةِ في الكثير الغالبِ، ولكن هذا الحدثَ الكلامي قد يفقد بعض دلالاتِه عند نقلِه، ومِن هنا قالتِ العرب قبلاً، وقالها ابن جنّي بعدا: "ليس المخبر كالمعايِن"؛ ذلك أن ثَم أحوالاً شاهدةً بالقصودِ، حالفةً على ما في النّفوسِ[68]، ومِن ذلك حادثةُ "صك الوجهِ" التي هي حكايةُ شكايةِ امرأةٍ على لسان شاعرٍ:

تقولُ -وصكّتْ وجهها بيمينِها-

أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟!

وقد علّق عليها ابن جنّي مستشفّاً فضلَ روايةِ هذه الحركةِ الجسميةِ في تعزيزِ المعنى، فقد جعلتْ هذه الحركةُ الجسمية كالمنْبهةِ على فَرطِ التّعجبِ والإنكار والتّعاظمِ، ولنا أن نتصور أن ثَم مخبرا، وأن ثَم معايِنًا لهذا الحدثِ الكلامي، فمن ذا الذي يقنع اللّغوي، أو ابن جنّي مِن قبلُ، أن دلالةَ الحدثِ القارةَ في نفس المعايِن هي كالتي عند المخبرِ؟!؛ إذْ إن المعايِن قد كان مِن شأنِه أنّه سمع الصائتَ وعاين الصامتَ، أما المخبر فلم يكن له حظ إلاّ بالوصفِ والتّمثيل مِن الصامتِ، "فلو قالَ حاكيا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟- مِن غير أن يذكر صك الوجهِ- لأعلمنا أنّها كانتْ متعجبةً منكِرةً، لكنّه لما حكى الحالَ، فقالَ: "وصكّتْ وجهها" عِلم بذلك قوةُ إنكارها، وتعاظم الصورةِ لها. هذا مع أنّك سامع لحكايةِ الحال، غير مشاهدٍ لها، ولو شاهدتَها لكنتَ بها أعرفَ، ولِعظَمِ الحال في نفسِ تلك المرأةِ أبين،...، ولو لم ينقلْ إلينا هذا الشّاعر حالَ هذه المرأةِ بقوله: وصكّتْ وجهها، لم نعرفْ به حقيقةَ تعاظمِ الأمر لها"[69].

وبعد، فلعلّ الذي يحسن بعد هذا العرضِ الدال بالاقتضابِ استدراك مضماره الإلماح إلى أن للغةِ الجسم في مصنفاتِ القدماءِ حضورا جلياً، وأنّهم عولوا عليها كثيرا في استشرافِ المعاني والمقاصدِ، وما اقتصار الباحثِ على علَمين من علماءِ العربيةِ أولهما بلاغي، وثانيهما لغوي إلاّ مِن بابِ حصر المباحثةِ وتجليتِها على نحوٍ محكمٍ غير مطولٍ، فمِن القدماءِ الذين ألمحوا إلى هذا المطلبِ، أعني لغةَ الجسم ابن رشيقٍ القيرواني في "العمدة"[70]، وكذلك الثّعالبي في مصنّفِه "فقه اللّغة وسر العربية"، فقد عقد أبوابا معجبةً في حركاتِ الجسمِ وألفاظِها، ومِن ذلك صفاتُ مشي النّساءِ، ونظرات العين وأوصافها، وكذلك هيئاتُ المِشيةِ، وهيئاتُ حركةِ اليدِ، ومثل ذلك كثير عنده[71]، وقد التفت الأصوليون إلى سهمةِ هذه الظّاهرةِ في الإبانةِ وتعيين المقاصدِ، وعلى رأسِهم الإمام الغزالي في مصنّفِه "المستصفى من علم الأصول"، وقد عرجتُ في بحثٍ آخر على ذلك[72].

روايةُ الحركةِ وحركةُ الروايةِ

وقد يحدث أحيانًا أن يسرد الراوي قصةً، أو حديثًا، أو

حدثًا كلامياً، فيكون أمينًا لِما نَقَلَ وحفظ، فيسير روايةَ الحدثِ الكلامي أو الحديثِ على ما سارتْ عليه غير حائدةٍ عن القصدِ، ولكنّه قد يقفُ عند هيئاتٍ مخصوصةٍ في الحدثِ الكلامي الذي عاينه، فيعسر عليه أن يرويها كما جاءتْ، كأن تكون حركةً جسميةً، أو تنغيما معينًا، أو ما هو قريب مِن ذَيْنِك مما لا يظهر إلاّ في الحدثِ الكلامي الحي، وبذا يقع تحولٌ في حركةِ الروايةِ التي يأتينا بها ذاك الراوي الأمين، فيستعين على تلكم الهيئاتِ المخصوصةِ بروايةِ الحركةِ بخاص لفظِه؛ إذْ ليس بمكْنتِه في روايته عامةً، والمكتوبةِ خاصةً، أن ينقلَ تلك الهيئاتِ المرئيةَ، وهكذا ينزاح في حركةِ الروايةِ إلى روايةِ الحركةِ، تحقيقًا للنّص، ورسما للّغةِ الجسميةِ الحركيةِ التي كان قد رآها فوفّاها حقها في التّغطيةِ. إخالُ أن هذا المتقدم يعوزه فضلُ بيانٍ وتجليةٌ. لنرجع النّظر في بعضِ الأحاديثِ الشّريفةِ التي كان فيها رسولُ ا – صلّى ا عليه وسلّم– يستعين على تأديةِ مرادِه الشّريفِ بالصامتِ والصائتِ:

حركةُ التّلازمِ والصحبة

"أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنّةِ هكذا، وأشار بالسبابةِ والوسطى... "[73].

لعلّه يحسن أن يسرح الخاطر لنتخيلَ أن سامعا سمع قولَ الرسول الكريم منسلخًا مِن سياقِه، غير مخصص بالحركةِ الجسميةِ المعينةِ للدلالةِ أو الدلالاتِ، أحسب أن نصيبه مِن التّواصل معه سيكون في أسفل سلّمِ درجاتِ الإبانةِ، فما المتعين مِن "هاتَين"؟ وإلى أي وجهةٍ يرمي بهاتَين؟ وأنّى لنا باستشرافِ مقصودِها إلاّ إذا كان ذلك مِن قِبل رمي النّظر في تكهنٍ وتخطّفٍ، ومِن هنا يتخلّقُ في الخاطر ثانيةً وثالثةً ورابعةً أن الرسالةَ في شطرٍ كبيرٍ مِنها لا تقوم في دلالتِها الكلّيةِ على ظاهر اللّفظِ، وأن النّص عندما ينقَلُ بعدا، أو عندما يتقادم به العهد، فيصير معمرا قد تغافل عليه الزمان، يفقد قليلاً أو كثيرا مِن محمولاتِه الدلاليةِ، ومرامي صاحبِه الأول.

أما الحديثُ الشّريفُ في سياقِه الحي فلم يكن ذلك كذلك فيه، لأن النّظارةَ وشهود حضرتِه الشّريفةِ رأَوا حركةً جسميةً أفضتْ إلى تعين المعنى على وجهٍ مِن الإحكامِ، وهو معنى الصحبةِ والتّلازمِ، ولما جاء الراوي في حركةِ روايةِ الحديثِ لم يجد بدأً مِن روايةِ الحركةِ؛ إذ هي عماد الحديثِ، وعليها عقد الكلامِ، فكان ذلك بتمثّله حركته الشّريفة التي عمادها تلازم السبابةِ والوسطى واقترانُهما معا، ليكون حظ كافل اليتيمِ كما كان حظ سبابتِه ووسطاه الشّريفتَين مِن تلازمٍ، فرويت الحركةُ بالكلماتِ تجليةً وتحقيقًا للمعنى المرادِ، فأضيف إلى السياقِ الشّريفِ ألفاظٌ ذاتُ دلالةٍ توافقُ دلالةَ "الحركة"؛ إذْ إن المعولَ عليه هو المعنى، وطرقُ تحصله، وروافد تغذيته، متكاثرة متعالقة.

حركةُ تعيين المكان والجهةِ:

قال رسولُ ا – صلّى ا عليه وسلّم-: "...التّقوى ههنا، وأشار بيدِه إلى صدره ثلاثَ مراتٍ..."[74]، والذي يظهر أن هذا الحديثَ الشّريفَ في أصلِه المتقادمِ يتردد بين قطبين: لفظي تُستقى مِنه دِلالةٌ، وآخر حركي تُستقى مِنه دلالةٌ أيضا، وقد كان من حضر مجلسه الشّريفَ ذاك مدركًا لِما أراده – صلّى ا عليه وسلّم– مستعينًا على تعيين المعنى المرادِ بالسياقِ بمعناه العريضِ: الحالي والمقالي، وليس يخفى أن حركتَه الجسميةَ هي التي عينتِ المعنى وخصصتْه، ولما سار الحديثُ بين النّاس، ولما تناقله الرواةُ، ولما انسلخ مِن سياقِه الحي – لما كان ذلك كذلك– كان مبدأُ الاعتياضِ مطلبا رئيسا مؤسسا لتعيين الدلالةِ للاّحقين، فهم ليسوا شهود الحضرةِ تلك، لا ولا مِن الذين عاينوا حركتَه الشّريفةَ التي جاءتْ لتعيين الجهةِ والمكان، ولذا اعتاض الراوي في روايتِه الحديثَ عن "الحركةِ" بالروايةِ، ولعلّ هذا يؤْذن بالوقوفِ عند مقولةِ ابن جنّي: "وليس المخبر كالمعاين".

وقريب مِن هذا، أعني حركةَ تعيين المكان باليدِ، ما ورد عن رجلٍ خطب لما أقام معاويةُ الخطباء لبيعةِ يزيد ابنه، فقال: "هذا أمير المؤمنين، وأشار بيدِه إلى معاويةَ، فإن ماتَ فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أبى فهذا، وأشار إلى السيفِ"[75]. وقد جعل ابن رشيقٍ هذه الحادثةَ تحتَ بابِ الإشارةِ، وحقّ لها ذاك، واللاّفتُ للخاطر أن من شهد الخُطبةَ تلك لفظًا وسياقًا كان قد استغنى عن شرح الراوي لها، لأنّه بمشاهدتِه حركةَ اليد، أو لنقلْ إشارةَ التّعيين، تتّجه نحو المقصودِ أدرك المعنى، فأغنت الإشارةُ عن قولِه: هذا أمير المؤمنين معاويةُ، فإن مات فهذا يزيد مكانَه، ومن أبى فهذا السيفُ له بالمرصادِ. ولما جاء الراوي مِن بعد لم يجد بدأً مِن أن يعدلَ في حركةِ روايةِ هذه الحادثةِ؛ لأنّها لما انسلختْ مِن سياقِها غدتْ "هذا" كالنّكرةِ مفتقرة إلى الخبرِ المجلّي لمعنى الإسنادِ، فقد كان المعنى في السياق الحي مؤتلفًا مِن اللّغةِ الصامتةِ "إشارة التعيين" والصائتةِ، وفي الثّانيةِ غدا مؤتلفًا مِن الصائتةِ المشفوعةِ بروايةِ الحركةِ الجسميةِ بالكلماتِ.

جلسةُ المتعلمِ المسترشِدِ

"... بينما نحن عند رسول ا ِ – صلّى ا عليه وسلّم–

ذاتَ يومٍ إذْ طلع علينا رجلٌ شديد بياضِ الثّيابِ، شديد سوادِ الشّعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفُه منّا أحد، حتّى جلس إلى النّبي صلّى ا عليه وسلّم، فأسند ركبتَيه إلى ركبتَيه، ووضع كفّيه على فخذَيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلامِ... ثم انطلق فلبث ملياً، ثم قال لي: يا عمر، أتدري من السائلُ؟ قلتُ: ا ُ ورسولُه أعلم، قال: فإنّه جبريلُ أتاكم يعلّمكم دينَكم"[76].

ليس يستقيم في الذّهن أن يذهب الظّن بالقارئ إلى أن أوصافَ الحركاتِ الجسميةِ التي أثبتها راوي الحديثِ قد جاءتْ مِن بابِ التّزيدِ أو الفضول؛ ذاك أنّها محملةٌ بدلالاتٍ مخصوصةٍ في سياقِها الخاص ذاك، وقد شهد أهلُ الحضرةِ مِن السائل حركاتٍ دالّةً على فضل أدبِ المتعلمِ المسترشِدِ، فلم يجلس جلوس الضيفِ، أو الآكل، أو المستوفِز، لا ولم يقفْ وقفةَ العجل، ولم تصدر عنه إشاراتٌ أو حركاتٌ جسديةٌ دالّةٌ على أنّه أتى ممتحِنًا يعايي الأذهان، بل تراجعتْ كل هذه الاحتمالاتِ الدلاليةِ ليقوم مقامها دلالةُ جِلسةِ المتعلمِ المسترشِدِ، فقد جلس وجاه الرسول الكريمِ -صلّى ا عليه وسلّم- مسندا ركبتَيه إلى ركبتَيه دلالةً على المواجهةِ والتّلقّي المباشر، ووضع يديه على فخذَيه (أي فخذَي السائل)، تحقيقًا لمطالب تأدب السائلُ في حضرةِ المسؤول، كل هذه المعاني التي تقوم في النّفسِ باعثُها الحركةُ الجسميةُ الدالّةُ على معانٍ مخصوصةٍ، وقد ألمح إلى هذا شارح الصحيح قائلاً: "وجلس على هيئةِ المتعلّمِ"[77].

وعلى صعيدٍ آخر، قد يحدثُ للراوي المرسِل أن يتواصلَ مع المستقبِل بحديثٍ، ولكنّه، في ثِني التّواصل، قد يرى مِن المستقبِل حركاتٍ وإيماءاتٍ تشي بأن حبلَ التّواصل قد انفصم، أو أن المرسِلَ بحاجةٍ إلى بيانٍ أو فضل بيانٍ، أو أن في نفسِ المستقبل سآمةً أو رضا عما يقولُ، فهذه كلها معانٍ قد تقع في نفسِ المرسِل لِتُؤْذِن، مِن بعد، بتعديلٍ في حركةِ روايتِه حديثَه تعديلاً يتساوقُ ومعنى حركةِ المستقبِل الجسميةِ الموميةِ، والظّاهر أن تلكم الحركاتِ والإيماءاتِ قد تقوم مقام كلماتٍ، ومثالُ ذلك ما يظهر جلياً في محاضراتِ الأساتذةِ لما يرون على وجوهِ طلابِهم علائم الفهمِ والتّواصل، أو التّجهمِ والتّفاصل، فيفيضون ويبسطون بقدرِ ما يجدون.

ومِن الأمثلةِ على ذلك ما وقع في خُطبةٍ لأبي بكرٍ - رضي ا عنه- يقولُ فيها:"...ألا إن أشقى النّاسِ في الدنيا والآخرةِ الملوك"! فرفع النّاس رؤوسهم، فقال: "ما لكم أيها النّاس؟ إنّكم لطعانون عجِلون، إن مِن الملوكِ من إذا زهده ا فيما في يديه..."[78]، وقد عاين الصديقُ مِن رفعِ الرأس كلاما صامتًا مضماره التّعجب أو الإنكار، والظّاهر أن حركة روايتِه كانتْ سائرةً باطّرادٍ وتواصلٍ مع الحاضرين، ولكنّه، عند نقطةٍ مشخصةٍ، رأى مِنهم حركةً جسميةً - وهي رفع الرأس تعجبا واستنكارا- قامتْ مقام كلماتٍ تقطع عليه حديثَ خطبتِه، فلم يجد بداً مِن تغيير حركةِ روايتِه حديثَه، والرد على ما قام في نفوسِهم مِن تساؤلٍ.

ومِن مثل ما تقدم أن روح بن حاتمٍ قدم العراقَ فصعد المنبر، فلما رآهم قد شفنوا أبصارهم، وفتحوا أسماعهم قال: نكسوا رؤوسكم، وغضوا أبصاركم، فإن المنبر مركب صعب[79]، والمستصفى مِن هذه الحادثةِ أنّه رأى مِنهم حركاتٍ جسديةً روتْ له إقبالَهم، وإصغاءهم، وتعجبهم، هذا ما يدل عليه رفع الرأس وشَفْن البصر، فكان مِنه رد بلغةٍ صائتةٍ على تلك اللّغةِ الصامتةِ.

الفاتحـــة:

1- **لغةُ الجسمِ في التّراث:** ومما بدا لي في هذا الدرس؛ درسِ لغةِ الجسمِ، زعم مفاده أن التّواصلَ بالجسم جد قديمٍ قُدمةَ الإنسان، ولكن دراستَه دراسةً علميةً لم تتم إلاّ حديثًا جداً، والظّاهر أن هذه المقولةَ في شقها الأول لا شيةَ عليها ولا شبهةَ. أما في شقها الثّاني فقد بدا أنّه يعوزها مراجعةٌ واستدراك؛ ذاك أن للغةِ الجسم في مصنفاتِ القدماءِ حضورا جلياً أمره، وأنّهم عولوا عليها كثيرا في استشرافِ المعاني والمقاصدِ، وليس يصح في الفهمِ أن يظَن أن التّأليفَ فيها حديثٌ، بل الأمر بالضد، فلعلماءِ العربيةِ قصب سبقٍ طويلٍ في هذا المضمار، ولعلّ البون بين علماءِ العربيةِ التّراثيين والمحدثين الغربيين أن الأخيرين فصلوا وبوبوا وأسهبوا، فعقدوا لكل جارحةٍ بابا أو أبوابا أو كتبا.

2- **لغة الجسم عالمية:** ومما بدا لي أن "لغةَ الجسم" الصامتةَ – وقد تقدم الحديثُ عن هذا– عالميةٌ، فثَم حركاتٌ وإيماءاتٌ معمرةٌ متقادمةٌ تُتداولُ في المشارقِ والمغاربِ، ومثالُ ذلك حركةٌ عمادها وضع الإصبعِ أو البنان في الفمِ، وقد رآها "موريس" دالّةً على الخوفِ، أو القلق، أو ما يدور في فَلَكِ هذين المعنيين[80]، وقد رواها لنا عمر بن أبي ربيعةَ مِن قبل روايةَ حركةٍ وسياقٍ فقال:

وقالتْ وعضتْ بالبنان فضحتَني
وأنتَ امرؤٌ ميسور أمرك أعسر[81].

3- **لغة الجسم والمعجم:** وبعد، فليكن هذا البحثُ فاتحةً لأبحاثٍ أخر: فاتحةً لمعجمٍ لغوي يرصد ألفاظَ الحركةِ الجسميةِ ليثبتَها فيه مقسمها إلى حركاتٍ فطريةٍ، وأخرى مكتسبةٍ، أو مِهنيةٍ، أو جنسيةٍ، أو سياسيةٍ، أو أنثويةٍ... ليكن فاتحةً لأبحاثٍ أخر؛ كاستشرافِ هذه الظّاهرةِ في لغةِ التّنزيل

العزيز اشتراكًا شاملاً وافيا، أو في الحديثِ الشّريفِ، أو في ديوان شاعرٍ... ليكن هذا البحثُ فاتحةً لأبحاثٍ أخرى تجمع بين الدرسِ اللّغوي الاجتماعي والنفسي.

4- **لغةُ الجسمِ بين الرتبةِ والإبانةِ:** وحسبي بعد هذا المتقدمِ قولان: أولُهما للجاحظِ في بيانِه وتبيينه: "ورب قليلٍ يغني عن الكثيرِ، كما أن رب كثيرٍ لا يتعلّقُ به صاحب القليل، بل رب كلمةٍ تغني عن خُطبةٍ، وتنوب عن رسالةٍ، بلْ رب كنايةٍ تُربي على إفصاحٍ، ولحظٍ يدلّ على ضميرٍ، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغايةِ..."[82]، ولعلّ الذي يتجلى مِن قول الجاحظِ شيئان أولُهما أن الرتبةَ والتّقديم قد يكونان للغةِ الجسمِ في مواضع؛ إذْ إنّها أبلغُ وأدل في مقاماتٍ مخصوصةٍ، وثانيهما أن لها فعلاً جلياً في الإبانةِ والتّواصل واستشرافِ المقاصدِ.

وثانيهما للشّاعر البصير بشّار، فقد تبصر في هذه اللغةِ الصامتةِ، فوصف وأجاد:

ومنتظر رجـع السلامِ بطـرفِـه
إذا ما انثنى يحكي لنا الغصن اللّدنا
إذا جعـل اللّحـظَ الخفي كلامـه
جـعلـتُ لـه عيني لتفهمـه أُذنـا
فلسنا على حمـل الرسائل بينَـنـا
نـريد سـوانا مفـهما حيـثُما كـنّا
كفتْنـا بلاغـاتُ العيـون حديثَنـا
فـقمن بحـاجاتِ النـّفوسِ لَـنا عنّا[83]

وفي هذا الذي كفى بشّارا في تواصلِه مِن بلاغاتِ العيون كفايةٌ للباحثِ عند هذا القدرِ في هذه الورقةِ؛ إذْ هنا أُمسك عنان القلمِ عن الكتابةِ؛ ذلك أن لها مستأنَفًا وصلةً نعكفُ على درسِها في أوراقٍ أخرى إن شاء ا [84]، والحمد ـ في بدءٍ وفي ختم.

الهوامش

(1) سورة مريم، الآية 29.
(2) انظر: ابن داود، 150/1.
(3) انظر: باكو، لغة الحركات، ط1، ص 76.
(4) Pease, A., Body Language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990, P.6.
(5) Pease, Body Language, P.5.
(6) انظر: باكو، لغة الحركات، ص110.
(7) انظر: باكو، لغة الحركات، ص6.
(8) Pease, Body Language, P. 8.
(9) انظر: باكو، لغة الحركات، ص19.
(10) انظر: باكو، لغة الحركات، ص62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمس التي أقيمت عليها الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما ينتسب إلى الفطرة التي أودعها ا فينا. انظر: Pease, Body Language, P. 8.
(11) Pease, Body Language, P. 17.
(12) انظر كتابي: ظاهرة اللبس في العربية، جدل التواصل والتفاصل، ط1.
(13) Pease, Body Language, P. 7.
(14) Pease, Body Language, P. 21.
(15) انظر: باكو، لغة الحركات، ص12- 14، و Pease, Body Language, P.12-13.
(16) انظر: باكو، لغة الحركات، ص 14.
(17) انظر: عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، ص30.
(18) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، ط1، 1996م، ص196.
(19) انظر: عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1.
(20) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، ص198.
(21) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، ص198-199.
(22) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب، ص29.
(23) الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.
(24) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.
(25) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 81/1، ويفسر محقق البيان العقد بأنه ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له حساب اليد.
(26) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.
(27) انظر: ابن رشيق ، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط5، 302/1-311.
(28) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.
(29) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1.
(30) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 106/1.
(31) الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.
(32) الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.
(33) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.
(34) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، وابن رشيق، العمدة، 309/1.
(35) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

(36) القالي، الأمالي، ط1، 225/1.
(37) انظر: القالي، الأمالي، 226/1.
(38) من المصنفات التي تناولت العين ودلالاتها: Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.
(39) Pease, Body Language, P. 134.
(40) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 219/1.
(41) الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.
(42) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 11/1.
(43) انظر الخطبة: الجاحظ، البيان والتبيين، 300/2.
(44) الجاحظ، البيان والتبيين، 302/2.
(45) الجاحظ، البيان والتبيين، 225/2.
(46) انظر: باكو، لغة الحركات، ص70- 75، و Pease, Body Language, P.155-162.
(47) تربط باكو هذه الحركة بالسعادة والانفعال أحيانا. انظر: لغة الحركات، ص70.
(48) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 308/2
(49) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.
(50) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 383/1.
(51) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 370/1
(52) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 44/1.
(53) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 133/1.
(54) انظر: Pease, Body Language, P. 18.
(55) ابن جني، الخصائص، ط4، 36/1.
(56) ابن جني، الخصائص، 362/2.
(57) ابن جني، الخصائص، 373/2.
(58) ابن جني، الخصائص، 373/1.
(59) انظر: ابن جني، الخصائص، 5/1-34.
(60) ابن جني، الخصائص، 25/1.
(61) الأنباري، أسرار العربية، ط1، ص353.
(62) ابن جني، الخصائص، 74/1.
(63) ابن جني، الخصائص، 330/2.
(64) ابن جني، الخصائص، 248/1، وانظر مقولة Pease في كتابه Body Language, P. 22-23.
(65) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.
(66) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.
(67) ابن جني، الخصائص، 249/1.
(68) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.
(69) ابن جني، الخصائص، 247/1.
(70) انظر: ابن رشيق، العمدة، 302/1-311.
(71) انظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، انظر تباعا: ص122، 194، 199.
(72) انظر: مهدي عرار، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: مجلة العربية، مجلة الرابطة الامريكية لأساتذة اللغة العربية، العدد 34، وقد وقف عند دلالة تغير اللون وتقطيب الوجه والجبين وحركة الرأس وتقليب العينين.
(73) انظر الحديث: البخاري، باب الطلاق، 103/7، وأحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، 375/2.
(74) انظر الحديث: أحمد بن حنبل، المسند، 277/2، والنووي، شرح صحيح مسلم، ط3، باب تحريم ظلم المسلم، 356/15.
(75) انظر: ابن رشيق، العمدة، 310/1.
(76) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، باب الإيمان، 274/1.
(77) قال: "وجلس على هيئة المتعلم"، انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، 272/1.
(78) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 43/2.
(79) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 249/2.
(80) انظر: باكو، لغة الحركات، ص64.
(81) ديوان عمر بن أبي ربيعة.
(82) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 7/2.
(83) الخالديان، المختار من شعر بشار وشرحه، ص63.
(84) أكاد أنتهي من كتابة ورقة أخرى في هذا المضمار، وقد عقدت لها عنوانا موسوما بـ"اللغة الجسمية في النص القرآني الشريف: الدلالة والتواصل"، أرجو أن تنشر قريبا في قابل الأيام.

المصادر والمراجع

ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، 1990م، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

ابن داود، أبو محمد الأصفهاني، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، 1985م، مكتبة المنار، الزرقاء.

ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط5، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1981م، دار الجيل، بيروت.

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د. ت.).

أبو بكر، وليد، 1998م، لغة الجسد في المسرح، ط1، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس.

أبو حيان، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، 1993م، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو عرقوب، إبراهيم، 1993م، الاتصال الإنساني ودوره في

التفاعل الاجتماعي، ط1، دار مجدلاوي، عمان.
أبو فخر، غسان، 1999م، فاعلية قراءة الشفاه والإشارات الدالة على مخارج النطق لدى الصم، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 15، العدد 4، دمشق.
أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت.
آرمز، روي، لغة الصورة في السينما المعاصرة، ترجمة سعيد عبد المحسن، 1992م، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
استيتية، سمير، 2003م، منازل الرؤية، ط1، دار وائل، عمان.
الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، 1995م، دار الجيل، بيروت.
بارت، رولان، درس السميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، 1986م، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
باكو، نتالي، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، 1995م، دار الجيل، بيروت.
البخاري، أبو عبد ا محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، 1997م، دار الأرقم، بيروت.
بيز، ألن، مهارات تحقيق المبيعات الناجحة، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1999م.
الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، 1997م، دار الفكر، دمشق.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، 1990م، دار الجيل، بيروت.
الجرجاني، عبدالقاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، 1989م، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.
جيرو، بيير، علم الإشارة، ترجمة منذر عياشي، 1992م، ط1، دار طلاس ، دمشق.
دبابنة، سمير، 1996م، نافذة على تعليم الصم، مؤسسة الأراضي المقدسة (منشورات منظمة المبادرات "initiatives" لتعليم الصم)، السلط، ط1.
زيعور، علي، 1991م، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، ط1، دار الطليعة، بيروت.
سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، 1988م، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة.
الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
عبد الفتاح، نازك، 2002م، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة.
عبيد، ماجدة سيد، 1992م، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض.
عرار، مهدي، 2002، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، مجلة العربية، ع34، أمريكيا.
عرار، مهدي، 2003م، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان.
عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، تحقيق عبد علي مهنا، 1992م، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.
الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، 1955م، الدار المصرية، القاهرة.
القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، تحقيق محمد عبدالجواد الأصمعي، 1996م، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
كشاش، محمد، 1999م، لغة العيون: حقيقتها، مواضعيها وأغراضها، مفرداتها وألفاظها، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.
مسكين، حسن، 2001م، الشكل البصري في الشعر المغربي الحديث، مجلة فكر ونقد، المجلد 4، العدد 37، مارس.
النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت.
هوكز، ترنس، البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، 1986م، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

Downes, W. 1998. Language and Society, 2nd Edition, Cambridge University, Cambridge.

Halliday, M.A.K. 1979. *Language as Social Semiotic*, The Social Interpretation of Language and Meaning, Edward Arnold, London.

Hess, E. 1975. *The Tell-Tale Eye*, Van Nostrand Reinhod, New York.

Hudson, R. A. 1998. *Sociolinguistics*, 2nd Edition, Cambridge University Press, Cambridge.

Mitchell, M. E. 1968. *How to Read the Language of the Face*, Macmillan, New York.

Paul, L. 1995. *Visual Communication: Images with Messages*, Wadsworth Publishing Company, California.

Pease, A. 1990. *Body Language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures*, Camel Publishing Company, Australia.

Scheflen, Albert E., Scheflen, A. 1972. *Body Language and Social Order: Communication as Behavioral Control*, Prentice-Hall, Englewood Cliffs.

Body Language and Its Role in Communication: Samples from Arabic Linguistic and Rhetoric Heritage

Mahdi A. Arar*

ABSTRACT

The researcher investigates the role of body language which conveys and enhances meaning and which sometimes signals a different meaning from the uttered words. This paper comprises of four main parts:

1. Introduction which includes body language that is innate and acquired, universal and culture specific.

2. Investigation of this phenomenon in rhetoric heritage in "Al-Bayan" by "Al-Jaheth".

3. Investigation of this phenomenon in Arabic linguistic heritage represented through "Ibn Jinny".

4. Argument between describing the body movement and the style of the teller.

(1) الآية(مريم، 29).

(2) انظر: ابن داود، أبو محمد الأصفهاني، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م، 150/1.

(3) انظر: نتالي باكو، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، 1995م، 76.

(4) Pease, A., Body language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990, P.6.

(5) Pease, Body Language, P.5.

(6) انظر: باكو، لغة الحركات، 110.

(7) انظر: باكو، لغة الحركات، 6.

(8) Pease, Body Language, P. 8.

(9) انظر: باكو، لغة الحركات، 19.

(10) انظر: باكو، لغة الحركات، 62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمسة التي أقيمت عليها الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما ينتسب إلى الفطرة التي أودعها ا فينا. انظر: Pease, Body Language, P. 8

(11) انظر: باكو، لغة الحركات، 62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمسة التي أقيمت عليها الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما ينتسب إلى الفطرة التي أودعها ا فينا. انظر: Pease, Body Language, P. 8

(12) انظر كتابي: ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.

(13) Pease, Body Language, P. 7.

(14) Pease, Body Language, P. 21.

(15) انظر: باكو، لغة الحركات، 12- 14، و Pease, Body Language, P.12-13

(16) انظر: باكو، لغة الحركات، 14.

(17) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة، 2002م، 30.

(18) انظ [illegible] لتعليم الصم)،

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Birzeit University, Palestine. Received on 5/9/2004 and Accepted for Publication on 7/3/2005.

(19) انظر: [illegible] 1992م.

([20]) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198.

([21]) لنظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198-199.

([22]) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب، 29.

([23]) الجاحظ، أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م، 76/1.

([24]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.

([25]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 81/1، ويفسر محقق البيان العقد بأنه ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال هل حساب اليد.

([26]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

([27]) انظر: ابن رشيق ، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط5، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981م، 302/1-311.

([28]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

([29]) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1.

([30]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 106/1.

([31]) الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

([32]) الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

([33]) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

([34]) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، وابن رشيق، العمدة، 309/1.

([35]) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

([36]) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، الآمالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 225/1.

([37]) انظر: القالي، الأمالي، 226/1.

([38]) من المصنفات التي تناولت العين ودلالاتها: Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.

([39]) Pease, Body Language, P. 134.

([40]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 219/1.

([41]) الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.

([42]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 11/1.

([43]) انظر الخطبة: الجاحظ، البيان والتبيين، 300/2.

([44]) الجاحظ، البيان والتبيين، 302/2.

([45]) الجاحظ، البيان والتبيين، 225/2.

([46]) انظر: باكو، لغة الحركات، 70- 75، و Pease, Body Language, P.155-162

([47]) تربط باكو هذه الحركة بالسعادة والانفعال أحيانا. انظر: لغة الحركات، 70.

([48]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 308/2

([49]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

(50) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 383/1.

(51) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 370/1

(52) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 44/1.

(53) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 133/1.

(54) انظر: Pease, Body Language, P. 18.

(55) ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م، 36/1.

(56) ابن جني، الخصائص، 362/2.

(57) ابن جني، الخصائص، 373/2.

(58) ابن جني، الخصائص، 373/1.

(59) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/5-34.

(60) ابن جني، الخصائص، 25/1.

(61) الأنباري، الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، 1995م، 353.

(62) ابن جني، الخصائص، 74/1.

(63) ابن جني، الخصائص، 330/2.

(64) ابن جني، الخصائص، 248/1، وانظر مقولة Pease في كتابه Body Language, P. 22-23.

(65) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

(66) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

(67) ابن جني، الخصائص، 249/1.

(68) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.

(69) ابن جني، الخصائص، 247/1.

(70) انظر: ابن رشيق، العمدة، 302/1-311.

(71) انظر: الثعالبي، أبو منصور(430هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الفكر، دمشق، 1997م، انظر تباعا: 122، 194، 199.

(72) انظر: مهدي عرار، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، مجلة العربية، مجلة الرابطة الإمريكية لأساتذة اللغة العربية، جامعة برغهام ينغ (Brigham Young University)، العدد 34، 2002م، 50، وقد وقف عند دلالة تغير اللون وتقطيب الوجه والجبين وحركة الرأس وتقليب العينين.

(73) انظر الحديث: البخاري، أبو عبد ا محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، دار الأرقم، بيروت، 1997م، باب الطلاق، 103/7، وأحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت، 375/2.

(74) انظر الحديث: أحمد بن حنبل، المسند، 277/2، والنووي، محيي الدين يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت، باب تحريم ظلم المسلم، 356/15.

(75) انظر: ابن رشيق، العمدة، 310/1.

(76) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، باب الإيمان، 274/1.

(77) قال: "وجلس على هيئة المتعلم"، انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، 272/1.

(78) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 43/2.

(79) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 249/2.

(80) انظر: باكو، لغة الحركات، 64.

(81) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق عبد أ. علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

(82) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 7/2.

(83) انظر: الخالديان، المختار من شعر بشار وشرحه، 63.

(84) أكاد أنتهي من كتابة ورقة أخرى في هذا المضمار، وقد عقدت لها عنوانا موسوما بـ "اللغة الجسمية في النص القرآني الشريف: الدلالة والتواصل"، أرجو أن تنشر قريبا في قابل هذه الأيام.